اوركيديا

دانا أبو زيد

أوركيديا

إلى كل شيء ألهمني للاستمرار بالكتابة رغم مشقة الطريق..

إلى الكاتبة الناضجة التي صرتها اليوم..

هذا العمل هو نتاج سنين من المشقة و تراكم الخبرة، لعل صوتي يصلكم هذه المرة بطريقةٍ ناضجة و مختلفة و ربما سأعبر بعده إلى عالمٍ ينصفني كإنسانة و ربما ككاتبة..

مع محبتي..

و قبل أن أبدأ صوت فيروز رافقني في هذه الرواية
فبطلتي عاشقة لفيروز أنشودة الصباح الأولى،
صاحبة أحن حنجرة..

"الوجع لا يُنسى، لكنه يتعلّم أن يعيش في ركنٍ بعيد
من القلب."

باولو كويلو – "الزهير"

"في كل امرأة قصة لم تكتمل، لأنها اختارت أن تصمت عند منتصف الجرح."

السابعة صباحاً

استيقظت اليوم بنشاطٍ بعد سماع صوت فيروز

"أنا كل ما بشوفك كأني بشوفك لأول مرة حبيبي"

أعددتُ قهوتي بينما أفكر ماذا تقصد فيروز..

هل يعقل أن تحب إنساناً يتجدد شغفك به في كلِّ يوم و كأنك تراهُ لأول مرة أم هي مبالغة في الجملة الغنائية!

لا أعلم كيف يقع الإنسان في الحب، فحياتي لم تمنحني هذه الهبة بعد، ربما إن كنت كاتبة لاستطعت تحليل مشاعري بشكلٍ أدق لكنني بائعة زهورٍ بائسة

تبحث عن معنى لحياتها التي انتهت قبل أن تبدأ.

لا أشعر بالحزن و لم أشعر بالسعادة منذُ زمنٍ طويل
أنا في المنتصف تماماً حيث اللاشيء و اللاشعور.

خرجت من منزلي بعد احتساء قهوتي و ذهبت لابدأ يومي في متجر الزهور، و في هذه المرة كنت أراقب الزهور بعناية..

الورد الجوري:

رائحته فواحة تشبه رائحة الشام
يبدو بمظهرٍ مغري، ألوانه مشرقة، بهية

التوليب:

زهرٌ أنيق راقٍ و عزيز
ينمو في الخريف، فريدٌ من نوعه
يحب البرد، و يميل إلى الرومانسية

الأوركيديا:

زهرة قوية شامخة
كما تبدو من الخارج
و في الداخل هي هشة
أنثوية ناعمة

و بينما أفكر قاطعني أحدهم قائلاً:

جيجي!

جيجي!

كان شاباً يبدو في مقتبل العمر و بدا و كأنه متأكدٌ
من معرفتي

أجبتهُ: عفواً!

اسمي جوليا!
و تشرفت بك كيف يمكنني مساعدتك؟

فردَّ: لا لا أنت جيجي
الانفلونسر المشهورة
لماذا لم تعودي كالسابق
كنتُ أتابعك باستمرار
و شاركت العديد من الفيديوهات
الخاصة بك، أنت جميلة!
أنا معجبٌ بك جداً!

ابتسمت لهُ ثم غادر المحل دون أن يبتاع شيئاً!

لا أعلم بماذا شعرت فقد أصابني بالارتباك، رغم أنه لم يكن مؤذياً و كان يعبر عن محبته بشكلٍ عفوي إلّا أنني في تلك اللحظة شعرتُ بأن شريط حياتي

السابقة يعود مجدداً و أردت أن أغلق الباب في وجهه بأية طريقةٍ ممكنة.

في اليوم التالي فتحت قلبي للحياة مجدداً على أمل أن أبدأ من جديد، كنت أشعر و كأنني على مقربة من الوقوع في الحب و هذا ما حدث لي فعلاً!

فقد طرق بابي رجلٌ لطيف.. أتذكر ميعاد لقائنا جيداً كان يبدو نبيلاً بشكلٍ لا يوصف فحين دخل إلى محل الزهور اشترى العديد من الأزهار الجميلة و أهداني زهرة توليب لطيفة

نظرت إليه بخجل و سألته هل هذه لي؟ هل اشتريت من زهوري لتهديني إحداهن!

فابتسم ثم قال لي:

أنتِ أجمل من الزهور التي تقتنيها

و هذه الزهرة تنحني لكِ احتراماً
هذا واجبٌ على انسانيتي أن أقدّر الجمال!
سآتي مجدداً في كل يوم
لاهديكِ زهوراً جديدة..

ثم أخذ الكرت الخاص بالمحل و حفظ رقمي عنده..

ابتسمتُ له و شعرت و كأنه بداية لحكاية
جديدة مجهولة المعالم،
لم أرغب بالتفكير ملياً
فقد كنتُ بأمس الحاجة
إلى لحظاتٍ قليلة من الأمان
و ربما بعض الراحة..

و بعد مضي ذاك اللقاء الجميل عملت كثيراً و
لساعاتٍ طويلة، و كأنه قد مدني بطاقةٍ لا نهائية و
طوق نجاةٍ قد انتظرتهُ طويلاً!

و بعد العمل وجدتُ نفسي تائهة في شوارع المدينة، لا أدري أي الطرقات أسلك ولا إلى أي الوجوه أنظر، شعرتُ بوحدةٍ شديدة لم أرغب بالعودة إلى المنزل كنتُ أريد أن احتفل بشعورٍ ما، كنت أشعرُ أنني محبوبة مجدداً و ذلك بعد أن سلبت مني الحياة تلك المشاعر الإنسانية و أقنعتني أنني منبوذة و وحيدة، سرت في طريق يودي إلى منزل صديقتي الوحيدة وصلتُ ثم طرقت الباب..

استقبلتني بودٍ كعادتها، عانقتها ثم أخبرتها على الفور..

أحدهم أبدى إعجابه بي!!

أجابتني:
_أنا سعيدة لأجلك

كنتِ محبوبة جداً و مازلتي!

نظرت إليها بامتعاضٍ و قلت:
_ تعلمين
كم أكره تلك الأيام!

_أعلم و لكنك كنتِ
جيجي!!
نجمة المؤثرين
الكثير من المتابعين
و المحبة و الأضواء!!

_و الكذب أيضاً!!
و الخسارات التي
لم تنتهي إلى هذا اليوم

_لا عليكِ!
لنغير الموضوع..
حدثيني عن ذاك الرجل
هل الأمر سيصل إلى
الوقوع بالحب؟!

_لا أعلم..
ربما، أريد أن أبدأ من جديد
لعله يكون بدايةً لشيء ما!

_ جوليا!
لماذا لا تمنحنين
نفسك بعض السعادة
أنت تستحقين
الكثير من الحب
و العوض و الأيام الجميلة!

_لا أدري
فكلما شعرت بالقليل من الاطمئنان
أصابني أطنان من الذعر
أخاف على سعادتي
أخاف على نفسي
يؤرقني الماضي
الذي لم أتخطاه بعد..
و ذاك اليوم الذي يبدو
و كأنه كابوس حياتي الأشد ذعراً
الذي لم أصدقه بعد!

_حبيبتي!
لقد فعلتِ ما بوسعك
و كنتِ إنسانة مضحية
لماذا تصرين على
أن تعاقبي نفسك
ربما لا تدركين بعد
أنها الحياة

هي من تضعنا
في هذه المآسي المتلاحقة
حيث لا نملك خياراتٍ
عديدة فإما أن ننجو
بأنفسنا و إما
أن نغرق في هلاكنا
إلى الأبد..

_أشعر أن أنني
بالكاد أستطيع أن أتنفس
لم أنسى انقباضة
صدري في ذاك اليوم
و لكنني سأعيش الحياة هكذا
بينما أحاول أن أنجو
بشكلٍ ما!

_لماذا تتحول جلساتنا
فجأة إلى مسلسل درامي!

_لا أعلم، ربما لأنك صديقتي
الوحيدة!

_ تعالي لأعانقك
يا جميلتي
آاااه
كم أحبك
أيتها العروس
القادمة!

_أحبك
رغم مشاكساتك!!

_انظري!!

رسالة من العريس القادم!

_قد أخبرتك و لم تصدقيني!
لكن..
ماذا يقول؟

_ مساء الخير يا ألطف
وردة في محل الورود
هل يمكنني
أن أشاركك
قهوة الصباح غداً؟

_اللّه.. ما هذه الرومانسية
الهاربة من الستينات!!

_اصمتي!

_كما تريدين

و لكن كيف سيكون الرد؟

_سأجيبه بنعم بالطبع

_أيتها المحتالة!!

_و ماذا تعتقدين
إنني معجبة به
منذ أول لقاء
هل سأدعه
يفلت مني

_لا بالطبع
فأنتِ ذكية!

_نعم أنا كذلك!

عدتُ إلى المنزل بكامل الامتنان بعد رؤية نغم، لطالما كانت صديقتي ملاذي الآمن و حضني الدافئ، لم أكن لاتخطى أي شيء قد حدث لي دون وجودها بجانبي..

خلدت إلى النوم مبكراً و ازداد حماسي لصباح اليوم التالي، كنت أشعر و كأن شيئاً ما ينتظرني و كنت أستعد له بفارغ الصبر..

عند الثالثة صباحاً

استيقظت بذعرٍ من كابوسٍ مظلم، استمع إلى دقات قلبي مع عقارب الساعة، غرفة مظلمة، وحدة بشعة إلى أين سأهرب.. لا أعلم!

حبة مهدء لا، لا..
لجأت لكوب يانسون دافئ ثم عدت لنومي..

في صباح اليوم التالي استيقظتُ و حاولتُ
استجماع نفسي فإن رياح الماضي التي تهب
باستمرار قد نخرت بعظامي و لم أعد أجد وسيلةً
للنجاة من ألمي، عند كل صباح أحاول الهرب من
كثافة هذه المشاعر، ترافقني فيروز مجدداً و قهوةٌ
صباحية أرى من خلالها بدايةً لصفحة جديدة..

و عند هذا الصباح

"و هديتني وردة خبيتا بكتابي، فرجيتا لصحابي،
زرعتا عالمخدة"

ما هذا الهراء
هل أعيش مراهقة الثلاثين أم جهلة الأربعين، لماذا
تأثرت بباقة وردٍ و من هذا الرجل الذي أنتظره اليوم..

ربما عليَّ أن أهدأ قبل أن أقحم نفسي بالمصائب،
فهذا الاندفاع لن يفيدني بشيء
تلك هي أفكاري التي رافقتني في طريق الذهاب إلى العمل..

وصلتُ إلى مكان العمل فوجدت ذاك الرجل بانتظاري..

نظرت إليه بتعجب شديد!

نظر لي ثم قال:

_صباح الخير و لكن..نصف ساعة تأخير!
لا بأس فأنتِ تستحقين الانتظار..
هل لي الآن بقهوة تعويضية؟

_صباح النور
تفضل بالدخول..

_لماذا تبدين شاحبة بعض الشيء
هل هناك مشكلة؟

_ لا أعلم أنا منهكة
منذ البارحة
أعاني من ضغوطات في العمل و الحياة..

_أعتذر عن ازعاجك!
لكنني فعلاً أرغب
بالتعرف عليكِ
و أنا جادٌ
بهذا الأمر!

_أرجوك! لنجلس بهدوء
دون التطرق
لمواضيعٍ جانبية

_كما تريدين بالطبع

في تلك اللحظات شعرت و كأنني أود الهرب بعيداً، لم أكن جاهزة للخوض في تجربةٍ جديدة، و بين وهلةٍ شعرتُ بها أن هذا الرجل قد يجذبني بلين طباعه و أخرى أحسست بها و كأنه صديقٌ غريب أقضي معه بعض الوقت لأنسى من أكون ثم يرحل فأعود لتعاستي، أصابني رهابٌ شديد و رغبةٌ في الرحيل..

أحياناً اتسائل في نفسي لماذا أنا موجودة الآن و بعد أن فقدت كل شيء، لماذا أكون على قيد الحياة و بينما أنا على قيد الموت..

و في ذاك اليوم أكملت عملي و عدتُ إلى منزلي أغلقت جميع النوافذ حتى نوافذ روحي و دخلتُ في

نومٍ عميق..

في اليوم التالي استيقظت مبكراً على صوت ينبهني
برسالةٍ غريبة..

"هل ظننتِ أنكِ ستختبئين خلف الزهور؟
العالم لا ينسى يا جيجي... ولا يغفر."

سقط الهاتف من يدي،
و شعرتُ و كأن الأرض تدور بي بدت جدران الغرفة
و كأنها تضيق و تكاد تخنقني.

من هو؟
من تذكّرني الآن؟
ومن يملك الجرأة ليعيدني إلى تلك الحفرة التي
خرجتُ منها بصعوبة؟

سمعتُ أصواتاً مزعجة داخل رأسي، مزيجٌ من
تصفيقٍ قديم وصيحاتٍ غاضبة،

أصوات المتابعين، المعلّقين و العيون التي كانت تراقبني.

صرخت: لم يكن لي ذنبٌ
أعتذر!
اقسم أنني لم استطع أن أفعل شيئاً
و لم يسمعني أحد!

أغلقت الأنوار وجلست على الأرض،
ثم أخذت نفسًا عميقًا، لأتذكر أنني لست "جيجي" بعد الآن.

أنا "جوليا"... بائعة الزهور التي ستحاول النجاة من نفسها، مرةً أخرى لكنني وحيدة

و أسوء ما في الوحدة هو أنني افتقد لمسةً أو ربما كلمة تعيدني إلى شعوري بإنسانيتي، تخرجني من قوقعة الجماد التي علقت بها، لقد نسيت نفسي، لماذا

ذهبت روحي بعيداً عني...

في ذلك اليوم عادت لي الذكريات من البداية
لا أعلم كيف يتألم المرء

لم تكن طفولتي حديقةً من الزهور،
بل أرضًا قاحلة لم تعرف الحنان يومًا.
كنتُ ابنة البيت الصامت،
ذاك السجن الذي يسكنه الغضب و
والخوف.

أبي الذي كان يقسو دون رحمة
بالضرب و الخيانات المستمرة..

وأمي المسكينة التي كانت ظلًّا هاربًا من صراخٍ و
إهاناتٍ لا تنتهي.

كبرتُ في بيتٍ يقدّس المظاهر الكاذبة الثابتة وينسى أن الطفلة تحتاج قلبًا رحيماً و تعلمت من أبي و أمي أن أفرط بنفسي فشعرتُ أنني لا أساوي شيئاً.

كنتُ أحلم أن أكون مرئية،
أن يسمعني أحد... أي أحد.

عندما بلغتُ الثامنة عشرة،
هربتُ من البيت كما تهرب العصافير من فخٍ منسيّ.

لم أحمل معي سوى اسمي ودفتر صغير كتبت به أحلامي.

وهناك، في العالم الافتراضي، وجدتُ من يسمعني أخيرًا.

أنشأتُ حسابي، وصرتُ "جيجي" الفتاة التي تضحك بصوتٍ عالٍ،

وتبدو قوية بما يكفي لتُخفي خوفها من كل شيء.

في البداية، كانت الأضواء تخدّر الألم.

و كانت الشهرة كمن يُمسك بزهرةٍ سامة ويغفل عن أشواكها.

لكنني لم أكن أعلم أن العالم الافتراضي لا يرحم أحدًا، وأن بعض الوجوه خلف الشاشات قد تحمل نوايا سوداء.

في تلك المرحلة، حدث ما لا يُروى.

لم يكن خطأً ارتكبته، بل خطيئة ارتُكبت في حقي.
وأنا التي ظننت نفسي حرة،
وجدتُ نفسي سجينةً في جحيمٍ آخر..

لم أذهب إلى العمل و بقيتُ عالقة بأحبال الماضي
التي عادت لتخنقني من جديد..

كان يشغلني شيءٌ واحد أحمقٌ
حبة المهدء
التي ستساعدني على النوم
و ربما الهروب بعيداً..

و في اليوم التالي.. صوت فيروز مجدداً
دندنة الصباح بأملٍ يتسرّبُ من نافذةٍ تطل على شتاءٍ
قادم

"ضل افتكر فيي
رجعت الشتوية"

نسيتُ و ربما تناسيتُ ليلة أمس و ربما ذاك الدواء
قد وضعني في هدوءٍ و سلام و هذا كل ما قد
احتاجه اليوم للاستمرار..

خرجت من المنزل و توجهتُ نحو محل القهوة..
أخترت اليوم أن أحتسيها في الخارج فالطقس
خلابٌ ثم
دخلت إلى المتجر وأنا أحمل فنجان قهوتي بين كفّيّ
المرتجفتين.

كانت المدينة هادئة على غير عادتها،
وكأنها تنتظر شيئًا، أو تُخفي شيئًا.

دخلت إلى متجري
وضعتُ القهوة على الطاولة،
أخرجتُ المفاتيح من حقيبتي،
فلاحظتُ وجود ورقة صغيرة عالقة أسفل الباب.

رفعتها بهدوء،
كانت مطوية بعناية،
وبداخلها وردة سوداء ذابلة
فتحت الورقة فوجدت:

"الزهور لا تُخفي رائحتها مهما تبدلت اسمائها.
مرحبًا بعودتك يا جيجي."

توقفت بمكاني و لم اتحرك
شعرتُ بالبرد يسري في عروقي رغم دفء قهوتي
لم يكن هنالك أحدٌ في الشارع بالقرب مني،
لكنني كنتُ متأكدة أن هناك من يراقبني.

وضعت الورقة في الدرج بسرعة،
وحاولت أن أبدأ عملي و كأن شيئًا لم يكن.

رتبت الزهور، نظفت الطاولات،
لكن الأفكار كانت تلاحقني كظلٍ ثقيل.

و بعد ساعة، دخل الرجل الوسيم
الذي صار يزورني عند كل صباح،
كان يحمل ابتسامة و ورود.

قال لي وهو يلاحظ وجهي الشاحب:

هل أنتِ بخير، تبدين متعبة اليوم!

أجبته وأنا أحاول التماسك:

ربما السهر، نمت عند ساعةٍ
متأخرة ليلة أمس

نظر حوله ثم اقترب قليلًا:

هل هناك ما يضايقك؟
كوني صريحة من فضلك!

ترددت..
كيف أشرح له أن الماضي الذي
دفنته عاد ليغرس أشواكه بي من
تحت الركام؟

قلتُ بهدوءٍ حذر:

لا، لا أحد. فقط بعض الذكريات الثقيلة.

ابتسم بلطفٍ وقال:

أحيانًا لا نهرب من الذكريات، بل نحتاج أن نواجهها.

كلماته اخترقتني كما لو كان يعرف شيئًا.

هل هو مجرد صدفة؟ أم أنه يعرف أكثر مما يظهر؟

حين غادر، جلستُ على الكرسي خلف المنضدة.
أخرجت الورقة مجددًا، قرأتها مراتٍ عديدة،

حتى لاحظتُ شيئًا غريبًا:

في زاوية الصفحة، بقعة صغيرة من الطين الجاف،
تشبه تلك التي تتركها أقدام من يزور المقابر.

وفي المساء، بينما أغلقت المتجر،
رأيت عند الباب باقة زهورٍ موضوعة بعناية،
في وسطها وردة سوداء أخرى،
و ورقة صغيرة مكتوب عليه اسمي القديم:

"جيجي الحقيقية".

كنت أرتعش بشدة و لكنني لم أكن أملك الشجاعة
بعد على معرفة الفاعل.

تجاهلتُ مشاعر الخوف بشكلٍ غريب، كنت أحتاج أن أهرب من ذاك العالم الذي يعيش في ذاكرتي باستمرار، و كنت اتسائلُ، لماذا يسقط المرء في الهاوية بينما بإمكانه أن ينجو بنفسه و أردت أن أنجو بنفسي..

و ما حدث لي لم يكن في الحسبان شعرت بقوة خفية تسحبني نحو الحاضر، وفي الحقيقة لم أكن أؤمن أن الحياة قادرة على منحي فرصةً ثانية، لكنني أدركتُ أن نجاتي قد تكون بالحب..

تعلقتُ بذاك الرجل الذي جاء كنسمةٍ في يومٍ خانق، وكأنه العوض الذي انتظرتهُ دون أن أدرك..

أعتدت حضوره اليومي، كلامه الدافئ و زيارته الصباحية التي أصبحت جزءًا من روتيني، مثل صوت فيروز وقهوتي المرة اللذيذة

و كأنه يضغط على جراحي ثم يشفيها،
حين يدخل المتجر بابتسامةٍ تشبه بداية الربيع،
ويختار الزهور ببطءٍ كما لو لأنه يحاورها،
ثم يقول لي في كل مرة:
لا شيء يضيء المكان مثلك يا جوليا، أنتِ زهرةٌ نادرة..

كنتُ أضحك بخجلٍ في كل مرة،
لكن قلبي لم يعد يضحك، بل يخفق.

ذات صباحٍ، ترك على الطاولة بطاقة صغيرة،
لم يوقّعها،
لكنني عرفتُ خطّه الجميل من أول نظرة.
كانت الكلمات بسيطة:

"لا أريد أن أقدّم وردةً اليوم،
أريد وعدًا بأن نلتقي خارج هذا المكان."

أغلقتُ المحل باكراً في تلك الليلة.
لا أعلم كيف سمحتُ لنفسي أن أقول نعم،

لكنني فعلت.

وكم كانت "نعم" تلك بوابةً إلى عالمٍ جديد.

التقينا بمقهى صغير و كانت أمسيةً ساحرة..

كان المساءُ هادئًا، والمدينة غارقةٌ بظلام تخلله أضواءٌ خافتة.

تحدثنا كثيرًا، عن الكتب، والزهور، والحياة المنهكة في آنٍ واحد و تقمصتُ شخصية جوليا حتى نسيت جيجي بشكلٍ كلي و كأنها لم تكن.

أخبرني بشفافية أنه قد فقد زوجته في حادثٍ أليم و أن الماضي قد آلمه بشدة فهو حين وجدني رأى بي سلامه المفقود و أمله الوحيد و لهذا لم يتردد بالاقتراب مني و الإصرار على وجوده بجانبي..

كنتُ أرى في عينيه صدقًا نادرًا،
ذلك الصدق الذي يذكّرك أن بعض القلوب لا تزال

بخير.

ومع مرور الأيام،
صار وجوده ضرورة لا عادة،
وأصبحتُ أؤمن أن القلب يستطيع أن يشفى،
ولو بعد زمنٍ من الألم.

حين طلب يدي للزواج،
لم أتردد كثيرًا.

شعرتُ أنني أستحق هذا النقاء بعد كل ما عشته.
احتفلنا بحفلٍ بسيط، لا أصدقاء من الماضي،
ولا ضجيج، فقط هو وأنا و نغم صديقتي الوحيدة،
و وردات توليبٍ بيضاء تزيّن الطاولة..

كنتُ أظن أنني وجدت السلام.
و أن الله عوّضني أخيرًا بعد كل الغرق.

مرت الشهور الأولى بهدوءٍ مدهش،
في بيتٌ صغير بعيدٌ يطلُّ على حديقة،

ضحكاتٌ مسروقة عند الفطور،
وهو يقول لي كل صباح:
كم جميلة أنتِ حين تبتسمين.

كنتُ أزرع الزهور حول المنزل،
وأسمّي كل زهرةٍ باسم حلمٍ منسي..

الأوركيديا كانت المفضلة لدينا.

قال لي ذات مرة:

هي تشبهك، قوية المظهر... ناعمة الداخل.

فابتسمت، وقلتُ له:

بل تشبهنا، لأننا نحاول أن نعيش رغم كل المواسم القاسية.

تخلصت من جميع المهدئات
لأنه كان يسكّنُ آلامي برقّته
كنتُ أعيش ما ظننته "نهاية الوجع"،
و اعتقدت أن جيجي صارت منسية
لكن الحياة لا تمنح نهاياتٍ سعيدة بسهولة.
فبعد عامٍ تقريبًا،
و في أحد الصباحات الهادئة،
وجدتُ على باب منزلنا وردةً سوداء مجدداً و لكنها
في هذه المرة كانت مرفقة بملف...

و لم أفتح الملف
لأنني لم أكن أملك الشجاعة بعد و ربما وددت لو
أنني لم أعثر عليه، لم أخرج من تلك الصدمة بسهولة
لكنني كنتُ أعلم في أعماق نفسي أن هناك يدٌ ما
تحاول إعادتي إلى ذلك الجحيم،
وأنني مهما حاولت أن أكون جوليا الهادئة
فإن جيجي لم تمت بعد.

خلدت إلى النوم مبكراً و كان زوجي أحمد غارقاً في عمله خارج المنزل فلم يرى الذعر الذي ظهر بوضوحٍ على وجهي و لم يلمس ضعفي في تلك الليلة..

و في اليوم التالي..

كان الصباح هادئًا بشكلٍ مريب،
الشمس خجولة، الهواء ساكن،
وصوت العصافير بدا مترددًا كمن يخشى شيئًا قادمًا.

فتحتُ الباب بعد سماع الجرس
و قد ظننت أن نغم قد أتت
لتشاركني قهوة الصباح
و لم أجد أحداً فوقفتُ بدهشةٍ..
و عند العتبة قد وضع أحدهم باقة زهور صغيرة،
في وسطها وردةٌ سوداء وحيدة،
مائلة إلى الذبول،
وبجوارها بطاقة بلا اسم.

ترددتُ للحظة، ثم فتحتها.
كانت الكلمات قليلة، لكنها اخترقتني كالسم البطيء:

"الزهور لا تُزهر فوق المقابر يا جيجي.
هل تظنين أننا نسينا؟"

تجمدت أنفاسي.

لم أسمع إلا دقات قلبي تتسارع كأنها تصرخ: *لقد عادوا!*

دخل زوجي إلى المطبخ مبتسمًا كعادته،
يحمل كوب قهوته وهو يقول:

جوليا، ما بكِ؟ تبدين شاحبة.

التقطتُ أنفاسي بصعوبة،

أجبتُه وأنا أحاول إخفاء الارتجاف في صوتي:

لا شيء... ربما برد الصباح.

اقترب مني، أمسك يدي، نظر إلى عينيّ طويلاً:

أنتِ لستِ بخير. هناك ما تخفينه عني.

لم أستطع الكذب، لكني لم أجرؤ على الحقيقة.

فكيف أقول له أن الماضي الذي هربتُ منه يطرق
باب بيتنا الآن؟

وأن الوردة السوداء ليست مجرد زهرة،
بل نذير لليلٍ طويلٍ قادم؟

قلتُ بصوتٍ منخفض:

فقط كوابيس قديمة... ستزول.

ابتسم برقةٍ وقال:

إذن لنزرع أحلامًا جديدة تمحوها.

ثم قبّل رأسي وغادر إلى عمله.

لكنني بقيت وحدي،
أنظر إلى الوردة السوداء على الطاولة،
كأنها عينٌ تراقبني.

بعد الظهر، رنّ الهاتف.
رقم مجهول.
ترددت، ثم أجبت.

صوت رجلٍ خافت، مبحوح كمن يخرج من ظلمة:

"هل تظنين أن الموت يُغلق القصص يا جيجي؟
ما دُفن لم يمت بعد."

ثم انقطع الاتصال.

تساقط الهاتف من يدي، وجلستُ على الأرض أرتجف.
كل شيء عاد دفعةً واحدة

ذهبت إلى درجي لاتفقد الملف المرسل إلي
و استسلمت لقدرٍ يلاحقني دون شفقة، فتحت
الملف و ووجدت بداخله

صوراً لي وأنا في بدايات شخصية "جيجي"،
وصوراً أخرى لم أرها من قبل..

و بدا وجهي شاحباً و منهك،
وفي الخلفية غرفة أعرفها جيدًا.

تحت الصور ملاحظة قصيرة:

"هل تظنين أن موت الطفل أنهى القصة؟
إن الحقيقة لم تُدفن بعد."

ارتجفت يدي حتى تساقطت الأوراق من بين أصابعي.

تراجعتُ للخلف ودموعي تنهمر دون إرادتي.
الطفل...؟ كيف يعرفون؟ ومن "هم"؟

في تلك الليلة لم أنم.
كنتُ أفتح هاتفي كل بضع دقائق،
أبحث عن رسالةٍ جديدة، أو لعنةٍ أخرى.
لكن الصمت كان أشد قسوة من أي تهديد.

وقبل أن يطلع الصباح، جاءني إشعار من رقمٍ مجهول:

"مرفق فيديو"

العنوان: "قبل خمس سنوات... المكان ذاته."

لكن قلبي أخبرني أن الماضي لم يعد ظلًا...
بل صار يسير نحوي بخطواتٍ ثابتة.

جلستُ أمام الحاسوب أرتجف،
الرسالة بلا عنوان، بلا توقيع،
لكنّها تحمل شيئًا أعرفه جيدًا... رائحة الماضي.

كان هناك ملفّ صغير بعنوان:

"قبل أن تنسي مَن أنتِ"

فتحته بتردد،
فظهر **مقطع فيديو قصير**، شاحب الألوان، متقطّع الصوت،
وكأنه مُلتقط من كاميرا مراقبة قديمة.

بدأت الصورة تهتز، ثم ظهرت فتاة شابة،
وجهها مألوفٌ حدّ الألم...

كانت **أنا**.
"جيجي" التي كنتُ أحاول قتلها منذ سنوات.

كانت تضحك أمام الكاميرا وهي تقول شيئًا لم أستطع سماعه،
ثم يتحول المشهد فجأة إلى ضجيجٍ وصراخ،
ضوء أبيض ساطع،
وصوتي أصرخ في مكانٍ لا أذكره...

تجمدت يداي على الفأرة.
أردت إغلاق الفيديو،
لكنني لم أستطع..

ثم ظهرت عبارة بخطٍ أحمر على الشاشة:

"نحن نعلم كل شيء."

انطفأت الشاشة ولم يكن في الغرفة سوى صوت أنفاسي المتقطعة،
ورجفة يديّ التي لم تهدأ.

لحظتها، فهمت أن ما ظننته ماضيًا قد انتهى،
كان في الحقيقة بداية لحربٍ لم تبدأ بعد.

قفزت ذاكرتي إلى تلك الليلة التي حاولت نسيانها...
الليلة التي خرجتُ منها إنسانةً أخرى.

تذكّرتُ الوجوه، الأصوات، والتهديدات.
تذكّرتُ كيف كنتُ أعيش تحت رحمتهم،
كيف أخذوا مني كل شيء حتى صمتي.

لكن الفيديو هذا المرة لم يكن مجرد تذكير،
بل **تهديد**.

رفعتُ رأسي نحو السقف كمن يبحث عن الله في
مكانٍ مظلم،
وتمتمتُ:

"يا رب... ما الذي يريدونه مني الآن؟"

اقتربت من النافذة،
فرأيت سيارة سوداء تقف أمام المتجر،
أضواءها مطفأة، والمقاعد خالية... ظاهريًا.

بدأت أشعر أن أحدًا يراقبني.

في تلك اللحظة، رنّ هاتفي.
الرقم بلا اسم.
أجبتُ بصوتٍ متردد.
فجاءني صوتٌ هادئ، مألوف بطريقةٍ غريبة:

"هل أعجبك الفيديو يا جوليا؟
لم نبدأ بعد... لدينا المزيد."

ثم أُغلق الخط.

سقط الهاتف من يدي،
وتراجعتُ خطوة إلى الوراء.
كلّ شيء بدا ينهار حولي:

الزجاج، الجدران، حتى أنفاسي.

لم أكن أعلم أن فتح ملفٍ صغير
سيعيد فتح جرحٍ لم يُغلق أبدًا..

قضيتُ الوقت أمام النافذة بصمتٍ و انكسار
كلّ ضوءٍ من شارعٍ مجاور كان يشبه عينيه..
كلّ صوتٍ خافتٍ كأنه يهمس باسمي.

منذ أن وصل الفيديو، لم أعد أثق بالهدوء.
و كأن السكينة خدعة و الصباحُ يشبه الفخ الذي
ينتظرني كي
يكشف أمري.

كنت أنام بجانب زوجي بينما أشعر و كأنني على
موعدٍ مع خسارته و كنت أعتقدُ أنه منهك من عمله
يستغرق بنومٍ عميق و أنه مقتنعٌ أنني أعاني من
كوابيسٍ ليس إلا..

و حين حلَّ الصباح، قررتُ الذهاب إلى الشرطة،
لكنني توقفت عند الباب.

بدا لي الأمر عبثيًا
كيف أشرح لهم أن مَن يلاحقني هو شبح من حياتي السابقة..

ربما رجلٌ كنت أظنه قد مات بعد فعلته؟
و لكن كيف سمعت صوت الرصاص في تلك الليلة؟
وكيف سأخبر زوجي أنني مزيفة؟

فتحت البريد الإلكتروني من جديد.
حين ظهر لي إشعار رسالة جديدة:

"اشتقتِ إلى الماضي؟
لا تقلقي، أنا لم أنسكِ أبدًا.
تذكّري... كنتِ لي قبل أن تكوني لأي أحد."

لم أستطع التنفس.
ذلك الأسلوب... تلك الجملة تحديدًا،
قالها لي ذات مرة، قبل أن تختفي أنفاسي معه في
ظلمةٍ لا تُنسى.
كان هو.
هو نفسه.

ارتجف جسدي كله،
وكأن الذاكرة عادت تحمل معها برودة الحديد،
ورائحة المكان، وصوت الباب الذي لم يُفتح بعدها
أبدًا.

لم يكن موتُه حقيقيًا إذًا.
ربما اختفى، لكنه لم يرحل عنِّي.
ظلّ يعيش بين طيّات الإنترنت،
في الظلال التي تراقبني كل يوم،
ينسخ صوري القديمة،
يرسل لي صوته من بين الضباب.

قررت أن أواجه قدري بنفسي و ذهبت إلى مصيري المجهول..

كانت السماء تمطر ببطء، كأنها تغسل ذاكرة المدينة.
و كانت خطواتي باردة، ثابتة رغم الارتجاف الذي يسكنني.

تتبّعتُ الإحداثيات التي ظهرت في زاوية الفيديو حتى وصلتُ إلى المكان:

كان مبنى مهجور عند أطراف المدينة،
أبوابه صدئة، نوافذه مكسورة، وجدرانه تشبه ماضيّ مليئة بالخدوش والندوب.

دفعت الباب فأنَّ بصوتٍ طويلٍ كأنّه يصرخ من وجعٍ قديم.

رائحة الرطوبة والغبار اختلطت برائحة شيء آخر مألوف، و كأنّها ذاكرتي.

دخلتُ بهدوء، أُضيء بطارية هاتفي،
كانت الأرض مليئة بأوراقٍ متناثرة وصورٍ باهتة.

تقدمتُ بخطواتٍ خفيفة،
إلى أن رأيت على الجدار أمامي كلمة مكتوبة بخطٍ أحمر:

"أهلاً بعودتك يا جيجي."

ارتجف الضوء في يدي.

و بدا المكان و كأنه يعرفني أكثر من معرفتي لنفسي.

سمعتُ صوتًا خلفي، خافتًا، متقطّع الأنفاس.

استدرتُ بسرعة... لا أحد.
لكنني كنت أشعر بوجوده.

صوت أنفاسٍ في العتمة، خطواتٍ خفيفة،
ورائحة عطرٍ رجوليّ أعرفها جيدًا.

"لم أتوقع أنكِ ستأتين وحدك..."

تجمّدت الدماء في عروقي.

خرج من الظل رجل، ملامحه نصف غارقة في الظلام،
ابتسامة صغيرة على وجهه كأنها خُطّت بسكين.

"كم انتظرتُ هذه اللحظة يا جوليا...
أو أقول، جيجي؟"

لم أستطع النطق.
كأن الهواء تجمّد بيننا.
اقترب خطوة، خطوة...
حتى صار صوته يلامس أذني:

"ظننتِ أنكِ تستطيعين الهروب مني؟
أنا لا أهوى نسيان ما أملكه."

صرختُ: ابتعد عني!

ضحك بهدوءٍ أشبه بالجنون.

"لم آتِ لأؤذيك هذه المرة،
جئتُ فقط لأُريكِ أنني ما زلتُ هنا،
أراكِ، أتنفسكِ، وأنتظر اللحظة التي تعترفين فيها لي
أن كل هذا لم يكن سوى لعبةٍ... هربتِ منها."

في تلك اللحظة، سمعت صوت إنذار سيارة من
الخارج،
انشغلتُ بالضوء الأحمر الذي انعكس على الجدران.
وحين التفتُّ...
اختفى.

لم يتبقَّ سوى ظله على الجدار،
كأنه لم يكن موجودًا أصلًا.

سقطتُ على الأرض، أتنفس بصعوبة،
بينما الهاتف في يدي ما زال يعرض الرسالة نفسها
على الشاشة:

"نراكِ قريبًا."

لم أستطع النهوض و سقطت في هاوية الماضي
الذي عاد ليطيح بي مجدداً..

وفي الجهة الأخرى من المدينة...

كان زوجي جالسًا في غرفة مكتبه،
يفتح حاسوبي بعد أن نسيت إغلاقه قبل خروجي.

بدا مترددًا في البداية،
لكنه ضغط على المجلد الذي يحمل اسمًا غريبًا:
"أوركيديا".

ظهر أمامه أرشيف من الصور والمقاطع القديمة،
تعليقات المتابعين، حملات المقاطعة،
ثم مقاطع مقطّعة لفتاةٍ تُشبهني
لكن بوجهٍ آخر، بملامحٍ مختلفة،

باسمٍ آخر... **جيجي.**

قرأ التعليقات القديمة، الرسائل، العناوين الصحفية:

"فضيحة مؤثرة مشهورة تختفي بعد فضيحة كبرى."

"جيجي... نجمة السوشيال ميديا التي اختفت في ظروف غامضة."

ثم شاهد جزءًا من الفيديو الذي وصلني صباحًا...
فتجمد أمام الشاشة.

و عيناه لم تستطيعان احتمال ما رآه.

تمتم بصوتٍ مرتعش:

يا الله... جوليا، ماذا فعلوا بك؟
ولماذا أخفيتي عني

جلس على الأرض، رأسه بين كفيه.

في تلك اللحظة فقط، فهم أنه تزوج امرأة تحمل بداخلها حربًا كاملة،
امرأة نجت من الجحيم لكنها لم تخرج منه بعد.

لم أدرك كم مرّ من الوقت وأنا في ذلك المبنى المظلم، ربما دقائق، وربما دهور.

كانت الأرض باردة، والرطوبة تزحف حتى صدري.
غبت عن الوعي لبعض الوقت ثم استيقظت و شعرتُ بثقلٍ في رأسي، و كأن ذكرياتي كلها تنهض دفعة واحدة لتجلس معي في هذا الركن.

و فجأةً، سمعت صرير بابٍ حديدي في الطابق العلوي، ثم خطواتٍ هادئة
لم تكن خطواته هذه المرة... كانت **أخفّ**، وأكثر **أنوثة**.

تجمدت في مكاني.

بدا الضوء الخافت القادم من النافذة و كأنه قد رسم
ظلال جسدٍ نحيل،
امرأة ترتدي معطفًا أسود طويلًا،
تقترب ببطءٍ وثقةٍ مريبة.

كنتُ بالكاد أستطيع أن أفتح عيناي

قالت: "كم انتظرت هذه اللحظة، جوليا..."

صوتها ناعم، لكنه يحمل سمًّا دفينًا.
رفعتُ رأسي نحوها بصعوبة.

وجهها مألوف بطريقةٍ أربكتني،
حتى نطقت هي:

"لم تتعرفي عليَّ بعد؟"

حدّقت بها جيدًا... ثم شعرت بدم بارد يسري في
عروقي.

كانت **نغم** — صديقتي الوحيدة.

نغم؟!

ماذا... تفعلين هنا؟

ابتسمت بمرارةٍ وقالت:

"أنا من كان هنا دائمًا.
أنا من بقيتُ في الظلّ عندما كنتِ تلمعين.
أنتِ أخذتِ كل شيء، حتى من لم يكن لكِ."

ارتجفتُ و قلت:

عن أيّ شيء تتحدثين؟

"عن الرجل الذي أحببتِه، عن الشهرة التي كنتِ
تزعمين أنكِ تكرهينها.

عن كل تلك الأكاذيب التي جعلتكِ ضحيةً و بدوت أنا كمجرمة..
جوليا... كنتِ دائمًا الأخبث."

بدأت تدور حولي بخطواتٍ بطيئة كمن يراقب فريسةً ضعيفة.

"أتذكرين تلك الليلة؟ هو لم يكن وحده.
كنتُ أنا من قادكِ إلى المكان...
وأنا من صورك،
وأنا من أخفى الطفل بعد ذلك."

صرختُ: *كاذبة!!*

ضحكتْ، ضحكةً قصيرة مؤلمة.

"كاذبة؟ أم حقيقية أكثر مما تحتملين؟
لقد جعلوني جزءًا من لعبتهم، ثم تركوني.

والآن سأعيد كل شيء كما كان... أنتِ أمام الجميع،

جيجي المذنبة،
وأنا... التي نجت."

ثم من الخلف، سُمِع صوت ارتطامٍ قويّ،
ودخل زوجي مسرعًا،
وجهه مصدوم من المشهد أمامه.

جوليا!! ابتعدي عنها!

لكن نغم سحبت شيئًا من جيبها،
سكين صغيرة، لمع نصلها تحت ضوء الهاتف.

"تأخرتَ قليلًا، أيها السيد النبيل.

جئتها في النهاية، أليس كذلك؟
لكني لن أدعكما تنعمان بما سرقتماه مني!"

تقدّم خطوة،
وفي لحظةٍ خاطفةٍ من الفوضى،
انقضّت عليه لتدفعه أرضًا،

لكنني اندفعت أمامه
لأحميه دون وعي مني
فهو أملي الوحيد لا أحتمل أن أراه يتعرض الأذى
من أجلي مجدداً!
فسقطتُ أنا والسكين على الأرض،
وانكسر الزجاج، وانطفأ الضوء.

لم يعد أحد يعرف من أصيب ،
أو من نزف أكثر...

التهم الظلام المكان،
وصوت المطر تساقط على النوافذ و كأن السماء
تبكي بالنيابة عن الجميع.

حين أضاء ضوء سيارة الشرطة المكان لاحقًا،
كانت نغم تختفي وسط العتمة
هربت، تاركةً خلفها أثر دمٍ وابتسامةٍ معلقة على
الجدار.

أما انا،
فكنت في حضن زوجي،
أنزف دماً
نصف واعية،
و روحي بالكاد تلتقط أنفاسها
أتمتم بكلماتٍ بالكاد تُسمع:

"أرأيتم.. الزهرة التي تنبت في الظلام... لا تموت،
لكنها تتعلّم أن تنزف بصمت."

ثم دخلتُ في نومٍ عميق..

استيقظتُ بعد ذلك في سريرٍ أبيض و رائحة المعقم
تُفوح في المكان،
كان الضوء خافتاً، والبرد يلسع أطرافي..

صوت أجهزة المراقبة يعلو وينخفض بإيقاعٍ ثابت، و
كأنه يذكّرني بأنني ما زالت على قيد الحياة رغم كل
شيء.

رفعت رأسي بصعوبة، فرأيت أحمد جالسًا على الكرسي بجانبي، رأسه بين كفيه، ملامحه منهكة، وعيناه محمرتان.

حين شعر بحركتي، نهض سريعًا، أمسك بيدي، وقال بصوتٍ مبحوح:

جوليا... حمدًا لله على سلامتك.

حاولت أن أبتسم، لكن الكلمات لم تخرج.

كل ما استطعت قوله كان همسًا باهتًا:

نغم... أين هي؟

تبادل أحمد النظرات مع الطبيب الذي كان يقف عند الباب.

اقترب الطبيب وقال بهدوء:

المرأة التي كانت معك... اختفت قبل وصول الشرطة بدقائق.

لكننا وجدنا آثار دماء في المكان، لذا على الأرجح أنها أصيبت.

أغمضت عيناي بقوة، وشريط الذاكرة عاد يعيد المشهد بكل تفاصيله.

السكين...
الظلال...
الصوت...

والاعتراف الذي لم يكتمل.

نظرتُ إلى زوجي بأسفٍ و انكسار و قلت له:

أنا آسفة

كنت أودُّ لو أنني أستطيع أن أهرب
من هذا الماضي المخجل
ولم أجرؤ على مواجهته

ارتجفت و انهمرت بالبكاء

أحمد: لماذا يا جوليا
كل هذا الوقت
هل تعتقدين بأنني
لن أقف بجانبك
أنا لست نغم
أنا أحبك بصدق
و عمق!

و ماذا عن الطفل الذي تندهين له باستمرار!

أجبته: لكنك لا تعرف شيئاً
انا فتاة هربت من منزل
والدها الظالم

و تحولت لمؤثرة بائسة
و في أحد الأيام علقت
في تصويرٍ متأخر
فتعرضت للاغتصاب
و حملت بطفلٍ
ثم فقدته حين بلغ الثلاث سنوات
و قضيت عمري أخضع علاجٍ
نفسي لأحتمل فكرة فقدانه
لقد فشلت في كل شيء
أنا لا شي..

ظهرت على ملامحه الدهشة الشديدة كنت أتمنى
الموت في تلك اللحظة الصعبة، لقد خدعت الإنسان
الحقيقي الوحيد الذي لم يتخلى عني، يا لتعاستي!
و لكنني شعرتُ أنني أريد أن أكون رحيمة بذاك
الرجل فأخبرته:

إن كنت تريد أن ترحل
الآن، لن ألومك صدقني!
بل إنني لطالما كنتُ متعجبة كيف وقعت

بحب امرأةٍ مثلي!

إنني وحيدة و مثيرة للشفقة لكن هذا لا يعني
أن أظلمك معي!

صمت قليلاً ثم قال لي
أحتاج بعض الوقت لأتمكن من الاستيعاب لكنني لن
أتخلى عنكِ، لا تخافي!

مضت العديد من الساعات بصمتٍ و حيرة، و ازداد
حبي لهذا الرجل أضعافاً مضاعفة بعد نبلهُ، لم
يتركني لوحدي و أنا التي غادرني كل شيء..

و بعد ذلك دخل أحد الضباط إلى الغرفة..

فتح دفتر ملاحظاته، وقال بصوت رسمي:

– السيدة جوليا، نحن بحاجة إلى أن نعرف كل ما
تعرفينه عن المرأة التي كانت معك...

اسمها الحقيقي ليس "نغم".

رفعتُ نظري إليه و أنا عالقة بصدمتي:

– ماذا تعني؟

– وجدنا هوية مزيفة في منزلها، والاسم المسجل عليها مختلف تمامًا.

كما وجدنا ملفات على حاسوبها تشير إلى مجموعة تستخدم أسماء مستعارة، تتاجر بالأعضاء البشرية...
وأحد الملفات يحمل اسمك، وصورك القديمة، ورسائل إلكترونية من حساب باسم "TheWatcher".

تجمدتُ في مكاني.

إنه نفس الاسم الذي عاد مؤخرًا، الاسم الذي كان يطاردني في الماضي، الذي بدأ من خلاله كل شيء.

تابع الضابط:

– هناك أمر آخر...

ملف طبي غريب بين المستندات.
يتحدث عن طفلٍ يحمل اسم " جود"،
ولد قبل عشرة سنوات في مصحةٍ خاصة خارج
المدينة ثم اختفى دون أثر.

تسارعت دقات قلبي و كدت أفقد أنفاسي.

همستُ بصوتٍ مبحوح:

– جود...!!

أمسك زوجي يدي بشدة، وعيناي تمتلئان بالدهشة

بدأت دموعي بالانهمار، و لم يستطع أحدٌ تهدئتي..
لقد سُرق ابني و لم يمت!!!

أريد أن أخرج اليوم أرجوكم أحتاج أن أجد ابني!!

نظرت لي الممرضة و قالت: لكن هذا مستحيل
جرحك لم يشفى بعد

قال لي أحمد: لا تخافي
سنجده، أعدك بذلك
لكن أرجوك

لتتعافي أولاً.

لم أشأ أن أصيبه بالخذلان
و لم أرفض طلبه

رغم حرقتي على طفلي المفقود
و مضت العديد من الأيام
بينما أتقلب في ألمي
إنه ألم الروح
و ليس الجسد في هذه المرة..

و بعد مرور تلك الأيام المرّة ذهبتُ إلى مركز الأمن لاستكمال التحقيقات..

كانت غرفة التحقيق ضيقةً وباردة، كأنها خُلقت خصيصًا لتجعل من يجلس فيها يواجه نفسه.

و على الطاولة أمامي وُضعت ملفات كثيرة، بعضها ممزق وصفحاتٌ كثيرة امتلأت بصوري القديمة، وصورٌ أخرى لم أرها من قبل.

في الزاوية آلة تسجيلٍ صغيرة، تضوي كلما نطق أحدنا بكلمة.

دخل الضابط **فارس**، رجلٌ في الأربعين، ملامحه صارمة لكن صوته متعب.

جلس مقابلاً لي وقال:

– السيدة جوليا، سنعيد بعض الأسئلة من البداية.

أحتاجكِ أن تتذكري كل ما يمكنكِ عن "نغم"... أو أياً كان اسمها الحقيقي.

هززت رأسي بتعب.

– قلت لكم، لم أعد أعرف من تكون. كانت صديقتي، أو ظننتها كذلك.

أشار فارس إلى أحد الملفات، فتحه، وبدأ يقلب الأوراق أمامي.

– وجدنا أدلة كثيرة تشير إلى أن "نغم" كانت تستخدم هوية مختلفة في كل مكان تعيش فيه.
لكن المثير للدهشة... أن كل تلك الهويات كانت تدور حول دائرةٍ واحدة، شخصٍ واحد مسؤول عن مواقع التواصل الاجتماعي كانت تتواصل معه باستمرار و تستخدمه و اسمه.

نظرت إليه بتوجس:
– من؟

– رجل يُدعى "مروان X". الاسم هذا تكرر في كل الوثائق،
في إيصالاتٍ بنكية، في ملفات العلاج النفسي،
وحتى في عقود العمل الوهمية.
هل تعرفينه؟

ارتجف شيءٌ في داخلي.
الاسم لم يكن غريبًا عليّ...
رأيته ذات مرة في بريدٍ إلكتروني منذ سنوات، كان موقّعًا أسفل رسالة تهديد، باسمٍ مستعار:

The Watcher.

ابتلعت ريقي بصعوبة:

– أظن... أنه الشخص الذي بدأ كل شيء.

رفع فارس حاجبه:

– ماذا تقصدين؟

أخذت نفسًا عميقًا وقلت:

– منذ أول سنة بعد الحادثة، بدأت تصلني رسائل غريبة.

في البداية كانت نصوصًا فقط، ثم صورًا لي من الكواليس، من داخل بيتي... حتى وأنا نائمة.
كان يقول لي دائمًا: "لن تَصلي للسكون حتى أقرر أنا".
تجاهلتها، و حين ذهبتُ إلى موقع الحادثة وجدت

الرجل الذي قام باغتصابي!

سجّل فارس ملاحظاته بسرعة، ثم قال:

– لدينا خبير إلكتروني يعمل على استرجاع الملفات من حاسوب "نغم".

لكن ثمة شيءٌ أغرب... يبدو أن هناك جهةً أخرى تحاول الوصول لتلك البيانات قبلنا.

كل مرة نقترب من فك تشفير الملف، تظهر عملية خارجية تحذّف تلقائيًا جزءًا منه.

نظرت إليه برعب:

– تعني أن هناك من يتابع التحقيق من بعيد؟

أومأ:

–ربما ليس بعيدًا... بل من الداخل.

ساد الصمت لوهلة، فقط صوت جهاز التسجيل يعمل بانتظام.

ثم قال الضابط بهدوء:

– أتعلمين، السيدة جوليا، أحيانًا لا يكون السؤال "من فعل ذلك؟"
بل "من سمح له أن يفعله؟"

شعرت بأن قلبي يهبط في صدري.

هل يعقل أن تكون "نغم" مجرد خيطٍ صغير في شبكةٍ أكبر؟

في الخارج، كان أحمد ينتظر في الممر.

حين خرجت، نظر إليّ بعينين قلقتين وسأل:

– كيف كان التحقيق؟

– مربك... هناك أشياء كثيرة لا أفهمها بعد.

جلسنا على المقعد المقابل للنافذة، نتابع المطر الذي
بدأ يطرق الزجاج.
قلت له بصوتٍ متعب:

– أشعر أن الماضي لا يريد أن يتركني.

كلما ظننت أنني نجوت، يخرج وجه جديد من تحت
الركام.

أجابني بنبرةٍ دافئة:

– ربما هذه المرة النهاية الحقيقية، جوليا.

لكنني كنت أراه في عينيه...
الشكّ الذي بدأ يتسلل إليه.

ليس بي، بل بكل ما يدور.

في منتصف الليل، عاد الضابط "فارس" إلى غرفة المراقبة، و في أثناء انتظاره لأي إشارة
وصلته رسالة عاجلة

لدينا خبر عاجل... تم رصد المرأة "نغم" في الميناء الشرقي، لكنها لم تكن بمفردها
كانت مع رجلٍ يرتدي قناعًا أسود...
و يمسك بيد **طفل**.

خرج الضابط فارس بسرعة و صرخ:

تحركو!
بسرعة!!!
تم رصد موقع نغم

و دون وعيٍ مني وقفت على قدمي و صرخت معهم
أحمد، لقد وجودوا ابني!!!

ثم بدأت بالركض معهم

وصوت أحمد يناديني خلفي:

"جوليا... توقفي! لا يمكنك الذهاب هناك وحدك!"

لكن قدماي كانتا تسبقان عقلي.

أشعر أن كل ما فيّ كان يدفعني نحو مكانٍ واحد،
نحو **جود**.

في الخارج، كانت السماء ملبدة،
والبحر يزمجر كوحشٍ غاضب.

وصلت إلى الميناء بعد ساعة،
بينما أضواء الشرطة الزرقاء والبيضاء تلمع كأشباحٍ

على الموج.

اقتربتُ من أحد الضباط وأنا ألهث:

– أين هي؟ أين نغم؟

ردّ بصرامة:

– السيدة جوليا، يجب أن تبقي في الخلف، الوضع خطر.

نحن نحاول محاصرتهم، وهناك رجلٌ مسلح على السفينة القديمة رقم ٧.

نظرتُ إلى الجهة التي أشار إليها،
كانت سفينة مهجورة تصدر منها أصوات حديدٍ يئنّ مع الرياح.

ومن بعيد، رأيت ظلاً يتحرك على سطحها،
امرأة ترتدي معطفًا أسود،

تجرّ خلفها طفلاً صغيرًا يقاوم بصوتٍ خافت.

صرخت:

"جـــــــــود!"

التفتت نغم،
وفي عينيها تلك النظرة التي لم أنسها من قبل
مزيج من الألم والجنون والانتقام.
قالت:

– تأخرتِ كعادتكِ يا جوليا...

لكن لا تقلقي، سأُنهي ما بدأناه منذ عشر سنوات!

تقدّمت بضع خطوات إلى الأمام،
لكن الضباط أوقفوني.
كانوا يحاولون تطويق السفينة،
إلا أن نغم أمسكت سكينًا، ووضعتها على عنق الطفل.

– خطوة واحدة بعد، وسينتهي كل شيء.

كان جسدي يرتجف،
لكن صوتي خرج رغم خوفي:

– نغم، أرجوكِ... اسمعيني.
لقد تدمر كلانا
أنا وأنتِ... كنا ضحايا، لا أعداء.
لن تستعيدي شيئًا بقتله، ولا بقتلي.
لقد سرقوا أطفالنا، أحلامنا، أجسادنا.
دعبنا ننهي هذا الجنون، معًا.

ضحكت، ضحكة مبحوحة امتزجت بصوت البحر:

– ضحايا؟ لا يا جوليا... أنتِ كنتِ المحظية، وأنا النكرة.

كنتِ دائمًا النجمة، وأنا ظلك الباهت.
لكن هذه المرة، سيعرف الجميع من بقي على قيد الحياة فعلاً.

في تلك اللحظة، دوّى صوت طلقة في الهواء.
صرختُ، وانخفضتُ أرضًا.

الضباط ركضوا نحو السفينة،
والصوت الوحيد الذي ملأ المكان هو صراخ الطفل.

ركضت بكل ما تبقى فيّ من قوة.

حين صعدت على سطح السفينة، رأيت نغم ملقاة على الأرض،
السكين بجانبها، والدم يسيل من كتفها.

وعند طرف السفينة، كان جود يبكي،
وعيناه تشبهان عينيّ كما لو أنه مرآة قلبي القديمة.

اقتربت منه بخطواتٍ مرتجفة.
مددت يدي نحوه ببطء، كأنني أمدّها إلى معجزة.

– لا تخف يا صغيري... أنا أمك.

نظر إليّ في حيرة،
ثم اقترب مني بخطواتٍ صغيرة،
و وضع رأسه على صدري.
انفجرتُ بالبكاء، كأنني أستعيد عمري المسروق كله.

وفي الخلف، كانت نغم تهمس بصوتٍ مبحوح:

"لقد أنقذتكِ مرة أخرى... كما وعدت."

أدارت وجهها نحو البحر،
ابتسمت ابتسامة صغيرة،
ثم أغمضت عينيها للأبد.

و هكذا انتهت قصة نغم
المزيفة التي استحقت نهايتها..

و مضت عدة أيام منذ حادثة الميناء.
كنت أجلس بجانب جود في غرفته الصغيرة، أراقب صمته واهتمامه بكل شيء حوله.

لم يتكلم بعد، لكن عيناه الصغيرتان تحملان الكثير من الخوف والارتباك.

و كلما حاولت الاقتراب منه، كان يلتفت لي بحذر، وكأنه يحاول التأكد من أمه التي أنجبته منذ سنوات..

و لم تكن علاقتي مع زوجي كالسابق حيث كان صامتًا في معظم الأحيان، لكنه كان يراقب كل خطوة من خطوات التحقيق و يدعمني ، لم أكن حزينة منه أبداً بل على العكس كنتُ نادمة لأنني قد وضعت الجميع في هذا الوضع المؤسف..

و في تلك الاثناء ركزت الشرطة جهودها على ملفات نغم و قاموا بتتبع

الرسائل الإلكترونية المرسلة باسم "The Watcher".

والحسابات المزيفة المرتبطة بالصفقات السابقة، البصمات والآثار التي تركتها على السفينة قبل سقوطها.

وجد المحققون أدلة واضحة على تورط نغم في شبكة اختطاف الأطفال وتجارة الأعضاء، مستخدمة موارد محدودة لتغطية جرائمها.

المثير للدهشة أن جميع الأدلة كانت مرتبطة مباشرة بجوليا، كما لو كانت تنتقم منها شخصيًا، وليس من المجتمع.

و في زيارة إلى المكتب المؤقت الذي خصصته الشرطة لمراجعة الملفات..

نظرتُ إلى تلك الصفحات بتعجب و قلت:

– الأمر يبدو واضحًا

"نغم كانت تبحث عني طوال الوقت، ليس لتدمير
الآخرين، بل لتدميري أنا...
كل شيء يربطني بالماضي."

أمسك أحمد بيدي، وقال:

– لا بأس، أنتِ لست لوحدك.

بدأ المحققون استجواب الشهود وجمع التسجيلات الأمنية حول الميناء، ووضع خطط لكيفية مواجهة أي عنصر من الشبكة قد يحاول الهرب أو الانتقام.
أصرَّ أحمد على عودتي للمنزل بسرعة لأنه يخشى على صحتي النفسية التي لم لتهدأ ليومٍ واحد بعد حادثة كشف نغم و رغم برودة علاقتنا إلا أنه بدا دافئاً بشكل لا يوصف..

وفي المساء، جلستُ بمفردي،
أراقب الشارع من نافذة الغرفة.
و الهدوء النسبي كان يبعث بعض الطمأنينة، لكنني
لم أتجاهل أزمة جود طفلي الذي لم يعرفني بعد، ولم
أنسى نغم، صديقتي الخائنة..

قاطعني أحمد و سألني:
لماذا لم تتوقفي عند ذاك الحد و مازلتي تحاولين
كشف خطوط الماضي ما الذي تغير؟

أجبته: كل شيء قد تغير
سأدافع عن جميع الأطفال
لأن اللّٰه قد منَّ عليَّ
بعودة ابني
و لا مزيد من الهروب من الماضي

فنظر لي بتعجب و قال:

هل تعلمين شيئاً
أنا فخورٌ بك

هذه جوليا التي تزوجتها

و شعرت أنني استعدت زوجي الذي أحب في تلك الليلة!

و في اليوم التالي استيقظت و خرجت مبكراً

كان النهار هادئاً و أحمد بجانبي
و لكن في داخل عقلي مازال كل شيء مضطربًا:

ذكريات الطفولة، اختطاف جود، نغم، والشبكة الغامضة.

جلستُ مع أحمد في المكتب المؤقت لنبحث في الملفات التي جمعتها الشرطة عن تحركات نغم قبل الحادثة.

– هذه الرسائل الإلكترونية، (بينما أشير إلى شاشة الحاسوب)، كلها تشير إلى مواقع قديمة: مستودعات، شقق مهجورة، ورقم مرفق بنكي غريب.

أضاف أحمد:

– يبدو أنها كانت تحرك أشياء كثيرة من خلف الكواليس.. .

فتح الضباط فارس ملفًا يحتوي على خريطة المدينة مع رموز مرسومة عليها:

قال بصوت هادئ:

– كل رمز يمثل مكانًا احتجزت فيه نغم الأطفال سابقًا.

سألته:

وما الذي يثبت تورطها مع الأطفال؟

أجابني:

– معظم الملفات تحتوي على أسماء وهمية، لكن الصور والملاحظات تشير إلى أنه تم الاحتفاظ ببعض الأطفال لفترات قصيرة قبل نقلهم إلى أماكن أخرى.

شعرت بشيء يشبه البرودة في عمق صدري، لكنني لم أستسلم.

و همست:
– علينا أن نذهب خطوة بخطوة.

رد أحمد:

– نعم، لن نخاطر بأي خطوة متهورة، وسنستعيد كل شيء بطريقة منظمة.

بدأ التحقيق يشمل مقابلات مع شهود آخرين، زملاء نغم السابقين في الحي، وأشخاصًا تعاملوا معها قبل سنوات.

أكدَّ الجميع أن نغم كانت ذكية جدًا، لكنها كانت وحيدة، وعلاقاتها محدودة، كما لو أنها تتقن الاختفاء عند الحاجة..

في الأيام التالية، بدأتُ وأحمد بزيارة المواقع المحتملة، برفقة الشرطة.

كنت أتحسس كل ركن من المستودعات القديمة، كل زقاق، و أبحثُ عن أثر صغير يمكن أن يقودني إلى الطفل أو أي دليل على شبكة نغم.

و عند كل ليلة، أعود إلى جود، أحاول تهدئته، وغرس الأمان في قلبه الصغير..

و مع تقدم التحقيقات، كان هناك شعور دائم بعدم اليقين يرافقني باستمرار.

أعلم جيداً أن نغم انتهت، و لكن شبكة "The Watcher" لم تُكشف بالكامل بعد، وأن كل خطوة يمكن أن تكشف شيئًا جديدًا، شيءٌ قد يغيّر

كل شيء

استمرت التحقيقات لأسابيع طويلة.

كنت أجلس يوميًا في مكتب التحقيق، لأتعاون مع الضباط على تحليل كل معلومة تركتها نغم خلفها.

كل خطوة كانت تكشف خيطًا جديدًا، حتى بدأت الصورة تتضح:

نغم لم تكن القائدة، بل كانت **الواجهة** لشخصٍ أقوى، رجلٌ له نفوذ ومال، يدير عمليات غير قانونية تحت غطاء الجمعيات الخيرية والمصحات الخاصة.

وفي أحد الأيام، دخل الضابط فارس الغرفة وعلى وجهه ملامح انتصار خافتة و قال:

– وجدناه.

رفعت جوليا رأسها بسرعة:

– من هو؟

– رجل الأعمال "رؤوف السالم"، مالك إحدى المصحات التي أُجري فيها نقل الأعضاء. كان هو المموّل، والمستفيد من كل عملية.

كان يستخدم نغم كوسيط، لتجنيد الفتيات واستغلالهن، ثم التخلص منهن بعد انتهاء مهمتهن.

شهقت جوليا، فقد كان هذا الاسم مألوفًا لديها...

– رؤوف؟! لقد ظهر معي في إحدى الحملات الإعلانية قبل سنوات!

أجاب الضابط بجدية:

– نعم، لقد كنتِ جزءًا من خطته دون أن تدري.

كان يراقبك منذ البداية، وهو من أمر بخطف الطفل... جود.

شعرت جوليا بأن الأرض تهتز تحتها

كل شيء عاد إلى مكانه المظلم: الوجوه، الدعوات، الصفقات، والابتسامات المصطنعة أمام الكاميرات.

– هل أُلقي القبض عليه؟ سألت وهي ترتجف.

قال الضابط:

– ليس بعد، لكنه الآن تحت المراقبة.
لدينا أوامر رسمية، وسنحسم الأمر قريبًا.

وبالفعل، بعد أيامٍ من المراقبة الدقيقة، تمت مداهمة فيلّا رؤوف الواسعة في ضاحية بعيدة عن المدينة.

عُثر في قبوها على ملفات كاملة، صور، أشرطة تسجيل، وسجلات تحويلات مالية تُثبت تورطه في

الشبكة.

حين اقتيد مكبلاً إلى الخارج، كان وجهه جامدًا لا يعترف ولا ينكر.

لكن حين رآني بين الحشود، توقّف للحظة، وقال بابتسامة باردة:

– لو لم تهربي من البداية، لكان مصيرك أعظم من هذا.

نظرتُ إليه بثباتٍ غاضب وقلت:

– لو لم أكن امرأةً قوية لما انتصرت عليك و صرت الآن هنا.

مضيت في طريقي بسعادة و ثقة، لقد انتصرت و إنها المرةُ الأولى التي تحدث لي في حياتي..

أُغلق الملف رسميًا بعد محاكمة استمرت شهورًا.

و حُكم على رؤوف بالسجن المؤبد، وأُعيد فتح ملفات ضحايا كُثر كانت قصصهم منسية.

و أصبحت صوتًا لهم جميعًا حين نشرتُ قصتي في كتابٍ حمل اسم: **أوركيديا**.

وفي إحدى أمسيات التوقيع، جلست على المسرح وأمامي مئات الوجوه..

أتحدثُ بصوتٍ هادئ لكنه واثق:

"كلنا نحمل ندوبًا، بعضها مرئي وبعضها مبهم لكن النجاة ليست في أن ننسى، بل أن نروي ما حدث، كي لا يتكرر و نواجه واقعنا كما هو."

في الصف الأمامي جلس أحمد و جود.

و رفع طفلي وردة أوركيد بنفسجية صغيرة ثم وضعها على الطاولة أمام أمه، وقال بابتسامة خجولة:

– هذه لكِ يا ماما.

ابتسمتُ لهُ ورفعت الوردة إلى صدري قبلّته و عانقته وهمست:

– ولأجل كل من لم ينجُ... ستبقى أوركيديا تزهر في الظلام.

وانطفأت الأنوار على تصفيقٍ طويل، بينما في الخلف، على شاشة العرض، ظهرت آخر جملة من الكتاب:

"في كل امرأة قصة، وفي كل جرح حياة جديدة تنتظر أن تُروى."

تمت بعون الله..